الفصل الرابع

ظهور قوة الغزنويين في المشرق الإسلامي

- الغزنويون واتجاههم المذهبي.
- أثر وصول السلطان محمود الغزنوي لسدة الحكم على الصراع المذهبي .
- موقف الغزنويين من المعارضة.
- أثر ظهور الكرامية على الحياة السياسية والاجتماعية.
- موقف السلطة الغزنوية من التصوف.

بعد أن انتهينا من تناول الفصل السابق الخاص ببداية الصراعات المذهبية مع بداية الحكم السامانى، الآن نتناول في هذا الفصل مواصلة الصراع بين المذاهب في عهد الدولة الغزنوية ولاسيما بعد وصول السلطان محمود الغزنوي إلى الحكم، لما له من أهمية أو نقطة تحول في الصراع المذهبي ومواقفه المتباينة مع الفرق المتصارعة.

الغزنويون واتجاههم المذهبي:

لم يختلف الحال بالنسبة لمذهب الدولة الغزنوية عمن سبقها سواء الطاهريون أو السامانيون، فقد اتخذوا من المذهب السني الحنفي مذهباً رسمياً للدولة، ولاسيما أن المذهب الحنفي له غلبة وظهور بخراسان، وقد تجلى اهتمام السلطان محمود الغزنوي بالمذهب الحنفي عندما اتخذ المذهب رسمياً للقضاء والفتاوى بل واهتم بقضاتهم وخاصة الفقيه "أبا صادق التباني" المقيم بنيسابور، حيث كان السلطان محمود يقول عنه وتلاميذه هم من أصدق اتباع الحنفية ولا يمكن الطعن فيهم بأي حال وكان يأمر بالعطف عليهم ويجيء بهم في مجلسه[1].

والتبانيون ينتمون إلى الإمام أبي العباسي التباني وهو جد الإمام أبي صادق التباني، وهو عالم كبير ويعد من تلامذة الإمام أبي حنيفة أيضاً، وكان من هذه الأسرة رجل فقيه يدعى أبا صالح وهو خال والدة "أبي صادق التباني" وقد عينه السلطان محمود إبان وجوده بنيسابور سبهسالاراً (القائد العام للجيش) للسامانيين ليرسله إلى غزنه؛ ليكون فيها إماماً على مذهب أبي حنيفة وكان ذلك في عام ٣٨٥هـ/٩٩٥م وقد اشتغل بالتدريس وتخرج على يده قاضي القضاة "أبو سليمان داود بن يونس" وهو من أبرز علماء غزنة ، وقد توفي أبو صالح (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) وكان من جملة علماء هذه الأسرة الإمام

(١) البيهقي، تاريخ البيهقي، ص٢٢٥؛ بدر عبد الرحمن: رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية ، ص ١٠١، ١٠٢.

"أبو بشر التباني" وهو علم في عصر السامانيين ذو ثراء عريض[١].

ومن مظاهر اهتمام السلطان محمود بالمذهب الحنفي فقد أسند قضاء نيسابور وطوس ونسا إلى القاضي الفقيه "أبي مظهر التباني"[٢]، كما اتخذ من "أبي محمد عبدالله بن الحسن الناصحي" (ت:٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) وهو حنفي المذهب مستشاراً و أوكل إليه التدريس والفتوى في غزنه ثم ولاه منصب قاضي القضاة[٣].

فضلاً عن أن الأمير نصر بن ناصر الدين بن سبكتكين- الذي عينه السلطان محمود على إمارة جيش خراسان وولاية نيسابور- قد بني مدرسة جعل التدريس فيها خاصاً بأصحاب أبي حنيفة وأوقف الضياع والعقارات الكثيرة عليها[٤].

إلا أن هناك رأياً قد أثاره أحد المؤرخين[٥] وهو تحول السلطان محمود الغزنوي من الحنفية إلى الشافعية على يد الفقيه "أبي بكر القفال الصغير".

لكننا نشكك في صحة هذا الرأي؛ لأنه من المعروف تعصب السلطان محمود الغزنوي للمذهب الحنفي ليس اقتناعاً أو تديناً قحاً منه، لكن لأنه المذهب الرسمي للخلافة العباسية وهو الذي يحرص دائماً على كسب ودها وطاعة خلفاءها لإصباغ الشرعية على حكمة، وتعضيده في كل أعماله، بالإضافة إلى ما سبق من تعيينه لأسرة التبانية كقضاة للمذهب الحنفي وإنشاء المدارس.

من ناحية أخرى لا يعني القول بأن سلاطين غزنة اعتمدوا على المذهب الحنفي، إنهم أهملوا شأن الشافعية المنتشر في أرجاء كثيرة من الدولة، فقد حظي هذا المذهب بتقدير السلاطين واحترامهم، فبلغ من تقدير السلطان

---

(٢) البهيقي، المصدر السابق،ص٢١٣-٢١٤.

(١) نفسه ، نفسه ،ص٢٢٦

(٢) بدر عبد الرحمن محمد، المرجع السابق، ص١٠٢

(٣) ميرخواند، روضة الصفا، ص١٦٠

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ،ج ١٢، ص٢٧

محمود الغزنوي لشيخ قضاة الشافعية في هرات واسمه "أبو منصور الأزدي" أن قدم إليه البغلة التي وفد عليها رسول الخليفة الفاطمي ويدعى "التاهرتي" وكان ذلك سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م، وقال: "كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين"[١].

ومن أشهر علماء الشافعية في خراسان الإمام"عبد الله بن أحمد أبو بكر المروزي القفال" شيخ الشافعية بخراسان وتوفي عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، وأيضاً الإمام " إبراهيم بن محمد أبو إسحاق الإسفراييني"[*] الأصولي المتكلم الشافعي وهو أول من لقب من الفقهاء بلقب (ركن الدين) وتوفي بنيسابور عام ٤١٩/١٠٢٨م[٢].

ومن مظاهر وجود المذهب الشافعي والاهتمام به في خراسان بناء مدرسة في نيسابور لتدريس المذهب الشافعي على يد الأستاذ "محمد بن الحسن بن فورك (ت: ٤٠٦هـ/١٠١٥م) الأصفهاني" المتكلم حيث تصدر للإفادة بنيسابور وتوسع في الأدب والكلام والوعظ أقام بالعراق مدة يدرس ثم توجه إلى الري فراسله أهل نيسابور فورد بها وبني له تلك المدرسة الفقهية ، ثم دعى إلى مدينة غزنة وله بها مناظرات عظيمة[٣].

وقد ذكر إمام الحرمين "أبو المعالي عبد الملك الجويني" (ت:٤٧٨هـ/١٠٨٥م) في كتابه مغيث الخلق في اختيار الأحق "أن السلطان محمود الغزنوي كان يأمر بجمع الفقهاء من المذهبين الحنفي والشافعي بمدينة مرو، وتجري بينهم المناظرات، لترجيح أحد الفريقين على الآخر[٤].

---

(٥) العتبي، تاريخ اليميني، ج٢، صـ٢٥٠؛ حمد الله مستوفي قزويني، تاريخ كزيده، صـ ٣٨؛ بدر عبد الرحمن، نفسه ،ص١٠٢

(*) الاسفراييني: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد كان فقيهاً متكلماً أصولياً، وعنه أخذ عامة شيوخ نيسابور وتوفي عام ٤١٩هـ/١٠٢٨م. (أنظر: الشيرازي، طبقات الفقهاء، صـ١٢٦- ١٢٧).

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج٤، ص٢٦٠،٢٧٠

(٢) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج ٣، ص١٣١

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٦٧؛ أستاذ خليلي:سلطنت غزنويان، ط كابل ١٣٣٣هـ. ش،ص١٤٧

إلا أنه من الواضح أن مساندة المذهب الحنفي السائد آنذاك هي الأساس بالنسبة للسلطة الغزنوية، وذلك لمحاولة تضييق الخناق على المدارس الشافعية التي بدأت في طريقها للانتشار في خراسان خصوصاً مدرسة نيسابور[١]، ومع ازدياد قوة المدارس الشافعية في نيسابور رأي الأمير نصر بن سبكتكين بناء مدرسة كوقف للقاضي الحنفي "أبي العلا صاعد" لينافس هذه المدارس التي بنيت للمذهب الشافعي في العهد السيمجوري مواء في نيسابور أو في المدن الأخرى بخراسان[٢].

لاسيما وأن للمذهب الشافعي أيام السامانيين قوة لا يستهان بها حيث كان السيمجوريون وهم عمال السامانيين على خراسان- نسبة الى القائد سيمجور الدواتي أحد قادة الجيش السامانى- متبنيين هذا المذهب ورعايته وتأسيس مدراس له[٣].

وبهذا التأييد المنقطع النظير للمذهب الحنفي استطاع الغزنويون كسب الدعم السياسي لحكمهم في مدن خراسان وخاصة نيسابور التي كانت مركزاً للتجمع الدين والاضطرابات الطائفية في ذلك الوقت، وخصوصاً بعد تأسيس "القاضي أبي العلا صاعد" المدرسة الصاعدية الحنفية في نيسابور، لكنه عزل من منصبها عام٣٩٣هـ/١٠٠٢م[٤].

إلا أنه حدثت على إثر هذه المناظرات بين الطرفين الحنفي والشافعي نشوب القتال والفتنة في نيسابور[٥]، وقد ذكر المقدسي[٦] أن الشافعية انتشروا في طوس ونسا وابيورد والشاس وإيلاق بالإضافة إلى هرات مثلما حدث في سرخس بسبب التعصب وتراق فيه الدماء في بعض الأحيان.

---

(٤) محمد حسن العمادي،خراسان في العصر الغزنوي، ص٢٦٦

(٥) البيهقي، تاريخ البيهقي، ص٢١٣

(١) الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص١٢٦

(٢) العتبي، تاريخ العتبي،ج١، ص٢٧٤ ؛ البيهقي: المصدر السابق، ص٢١٣

(٣) محمد أبو زهرة ، الشافعي حياته وعصره ، ص٤٠١

(٤) أحسن التقاسيم، ص٣٣٦

لكن أحد المؤرخين[1] قد وصف صراع أتباع المذاهب السنية الحنفية والشافعية ضد بعضهم البعض بأنه صراع طبقي وذلك بقوله :" وتحت راية الدين على مايبدو حدث الصراع الاقتصادي بين العناصر المختلفة من سكان المدينة وبصورة خاصة بين سكان المدينة والقرية، والشافعية في هذا الصراع كانت تمثل الطبقة العليا بالمدن، والحنفية تمثل أصحاب الحرف والفئات الوسطى من سكان القرى".

تعليقاً على النص السابق هنا يحاول المؤرخ أن يقسم أتباع المذاهب الى طبقات وشرائح وأماكن تواجدها، إلا أننا نرى أن هناك اعتسافاً لهذه الأحكام لأنه ليس من الضروري أن يكون أتباع الإمام الشافعي من المدن بل هناك بعض أتباع المذهب الشافعي الذي كان منتشراً بين القرى والشرائح العاملة والعكس كان المذهب الحنفي هو السائد والمنتشر في المدن والقرى ، ويؤيد هذا الرأي البيهقي[2] عند حديثه عن تعيين السلطان محمود الغزنوي منهم القضاة وأصحاب المدارس لدرجة أن الفقهاء والقضاة الحنفيين أصبحوا من كبار رجال الدولة بل وامتلك البعض منهم ضياع وأراضي وتم تسييس الفقهاء الحنفيين تحت عباءة السلطان محمود الغزنوي.

صحيح أن الصراعات القائمة بين المذاهب المختلفة لها جذور اجتماعية واقتصادية، لكن هذا لا يعني أن يتم تقسيمهم بهذا الشكل المبالغ فيه ، بل يعتبر هذا الرأي تفسيراً مادياً سطحياً أو شكلي متعسفاً.

أثر وصول السلطان محمود الغزنوي لسدة الحكم على الصراع المذهبي:

لقد كان لوصول السلطان محمود الغزنوي إلى حكم خراسان أثركبيرفي الصراع بين المذاهب بوصفه سني المذهب والمعروف بتعصبه المقيت ضد المذاهب الأخرى حتى المذاهب السنية الأخرى، ومن ثم كانت فترته هي ما

---

(٥) بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ٢٠٠.

(١) تاريخ البيهقي، صـ٢٢٦.

تسمى فترة قمع الفكر وحرية الرأي والاجتهاد، فضلاً عن مساندة وتعضيد الخلافة العباسية له.

وقد تجلى خضوع السلطان محمود الغزنوي للخلافة العباسية في عام(٤٠٨هـ/١٠١٧م)حين استتاب الخليفة القادر بالله(٣٨١ -٤٢٢هـ/٩٩١ – ١٠٣٠م) فقهاء المعتزلة ، فاستن السلطان محمود بسنته فقبض على المعتزلة والإسماعيلية والقرامطة وصلبهم وحبسهم ونفاهم[١].

وعلى الصعيد السياسي الخارجي قام السلطان محمود الغزنوي بمحاربة الكيان الشيعي الزيدي حيث نجح في الاستيلاء على أملاك البويهيين وأسر الأمير "مجد الدولة البويهي" فقُيد إلى خراسان، وكتب إلى الخليفة القادر بالله العباسي (٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣٠م) يعلمه بذلك، فكتب إليه القادر عهداً على خراسان والجبال والسند والهند وطبرستان وسجستان، كما لقبه بعدة ألقاب مثل: يمين الدولة، وناصر الملة، ونظام الدين، وناصرالحق بجانب الخلع السلطانية[٢].

وعلى الصعيد الفكري فقد تمرس السلطان محمود الغزنوي في قمع أصحاب الفكر والعقل من المعارضين له سواء على مذهبه السني أو الشيعي، وكان من بين الذين اتهم في دينهم العميد"أبو بكر على الحسن القهستاني" حيث كان يميل إلى علوم الفلسفة، فتم قدحه في دينه[٣].

وقد انتابت الفلسفة في زمن محمود الغزنوي أزمة خطرة أوشكت أن تقضي على حياتها ، فقد قام محمود باضطهاد الفلسفة والفلاسفة في أنحاء الولايات ، وكان جاداً في تعقبهم وإبادتهم ، ولاسيما أن ذلك متمم لسياسته في

---

(٢) ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب،ج٣، ص١٨٦؛ عصام الفقي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، ص٢٠٨

(١) ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٣، ص١٢٧؛ الكرديزي: زين الإخبار ، ص٣١٣ ؛ العتبي: تاريخ اليميني،ص١٧٨ ؛ جوزجاني : طبقات ناصري ، ص٢٢٩

(٢) الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ط. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٧١م، ج٢ ، ص٢١١؛ محمد محمدي: الأدب الفارسي ، ط٢ طهران ١٩٩٥م، ص١٦٣

تعقب القرامطة ، وقد امتد نطاق الاضطهاد من خراسان إلى الري عندما تغلب عليها محمود وشُنِق بأمره في يوم واحد مائتان بتهمة الاعتزال وسوء المذهب[1] ، أما من ضمن بلايا التعصب حرق كتب الباطنية والمعتزلة والفلاسفة، فمما جاء في كتاب أرسله السلطان محمود الغزنوي إلى الخليفة القادر بالله ببغداد أنه في عام (٤٢٠هـ- ١٠٢٩م) حارب المعتزلة فصلب منهم جماعة وأحرق كتب المعتزلة والفلاسفة إذ كانت من أصول البدع، وأحرقت خزانة بيت الحكمة في الري ، وذلك حين ورد السلطان محمود أمر بإحراق كل ما تحتويه من كتب علم الكلام واصفاً إياها بأهل البدع، حيث وجد بها فهرساً كُتِب في عشرة مجلدات[2].

وفي الأدلة السابقة وضوح على أن السلطان محمود يقمع أصحاب الفكر الحر من أجل توطيد أركان النظام الإقطاعي التركي، وضمان عدم مهاجمته ولاسيما أن الإسماعيلية تقوم بنشاط كبير، فيتهم خصومه بالإلحاد وبالفعل أعدم كثيراً من رعاياه وهلك كثير منهم تحت وطأة الضرائب[3].

فضلاً عن سلوكه هو كحاكم مسلم من المفترض أنه سلطان يحارب البدع كما يقول، بالرغم من ذلك فلم يتورع عن شرب الخمر وتعاطي المحرمات[4].

موقفهم من الفرق المعارضة:

أما عن موقف السلطة الغزنوية من الفرق المعارضة المتمثلة في الشيعة الإسماعيلية والقرامطة والمعتزلة وأصحاب الفكر الفلسفي أي كل ما يهدد نفوذ وسلطان وثروات السلطان محمود الغزنوي ومن بعده ابنه مسعود، فهو واضح من البداية القمع والقتل والنفي لتلك المذاهب بمساندة ومباركة الخلافة العباسية .

---

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، صـ ٢٥؛ محمد محمدي ، الأدب الفارسي ، ص١٦٣

(٤)ابن كثير، المصدر السابق، نفس الجزء، صـ ٢٤؛ يحيى وهيب الجبوري، الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ط١. دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٩٩٨م، ص ٣٠١،٣٠٣

(١) دونالد ولبر، إيران ماضيها وحاضرها، ص ٥٤

(٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية ،ص ٨٤

الشيعة الإسماعيلية والقرامطة:

بالطبع لكي يضمن السلطان محمود الغزنوي مساندة ومباركة الخلافة العباسية له وفي نفس الوقت يضمن وضعه السياسي كمسيطر على خراسان وما حولها وتكريس النظام الإقطاعي، كان لابد أن يقضي على الشيعة والإسماعيلية والقرامطة، فضلاً عن كونه متعصباً للمذهب السني الحنفي ولو من الناحية الشكلية.

حينما دخلت سنة (٤٠١هـ/١٠١٠م) قصد السلطان محمود الغزنوي مدينة الملتان واستولى عليها ونهب ثرواتها وقبض على أكثر القرامطة الذين كانوا هناك وقتل بعضهم وقطع أيدي البعض الآخر، وسجن الباقين في القلاع حتى ماتوا بهذه الأماكن[١].

وأيضاً حدث في عام (٤٢٠هـ- ١٠٢٩م) هجم محمود الغزنوي على مدينة الري وقتل وصلب من وجده قرمطياً فضلاً عن انتهاب أموال رئيسهم رستم بن على الديلمي فحصل منها ما يقارب من مليون دينار[٢]. فهذا يوضح إلى أي مدى وصل نشاط الشيعة الإسماعيلية والقرامطة الذي تنوع ما بين نشاط سري ونشاط ظاهر من خلال الدعاة الذين يبثون في أرجاء المشرق الإسلامي، مما يعكس قوة الخلافة الفاطمية التي أظهرت قوتها من خلال دعاتها في خراسان.

وفي هذا الصدد أوردت أحد المصادر حادثة شهيرة جداً وهي مجيء رسول الخليفة الفاطمي والذي يدعي "التاهرتي" إلى السلطان محمود الغزنوي عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) داعياً إلى المذهب الإسماعيلي، وحينما وصل إلى هرات قال فقهاء السنة:"إن هذا الرسول قدم يحمل دعوة عزيز مصر وهو على مذهب الباطنية" فأمر السلطان بتسليمه إلى "حسن بن طاهر

---

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ص٣٤ ؛البغدادي: الفرق بين الغرق، ص٢٩٣؛ الكرديزي: زين الأخبار،ص٢٨٩ ؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص١٧٨

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٤

بن مسلم" فقتله بمدينة بست[١].

إلا أن هناك أحد المؤرخين[٢] يقول بأن السلطان محمود أمر مجموعة من الفقهاء و زعيم الكرامية "أبي بكر محمد بن اسحق محمشاد"- الذي سيأتي ذكره فيما بعد – بمناظرة التاهرتي ومحاورته وعندما أثبتوا أنه ملحد أمر السلطان بقتله ، بينما يرى مؤرخ آخر[٣] أن السلطان أمر بالتشهير به وطرده ولم يذكر قتله.

لكن مسألة قتله أو عدم قتله نرى أنها ليست أساسية ؛ لأن السلطان محمود الغزنوي لن يهمه أي شيء سوى القضاء على أي نشاط للشيعة الإسماعيلية والقرامطة؛ لذا فمن المرجح أنه قتله بالفعل، ويكفي أن التاهرتي رسول الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦- ٤١٤هـ/ ٩٩٦-١٠٢٣م) زعيم الإسماعيلية في العالم الإسلامي.

في رأينا نرى أن هناك تساؤل مهم أهم من مسألة قتل الداعي الفاطمي ألا وهو لماذا أرسل الخليفة الفاطمي رسولاً إلى السلطان محمود الغزنوي وهو أقوى زعيم سني آنذاك وحامي حمى الخلافة العباسية؟ ألا يعد ذلك جرأة كبيرة جداً؟ لاسيما أن نشاط الإسماعيلية اتسم بالسرية و أنهم انخرطوا في التنظيمات الجماعية بخراسان.

الإجابة عن هذا السؤال نجدها عند الأستاذ محمد السعيد جمال الدين[٤] الذي حلل ذلك بأن الفاطميين أدركوا أن استمالة محمود الغزنوي أمر جدير بالمحاولة، لم لا وهو يعتبر أقوى رجل سني في زمانه، وكسبه نصراً سياسياً لا يعوض للفاطميين ويعد انهياراً أساسياً في قوى الخلافة.

---

(٣) الكرديزي، المصدر السابق، ص٢٩١

(٤) آي برتلس ، ناصر خسرو واسماعيليان، ترجمة آرين بور، ط تهران، ب.ت ، ص١٠٠-١٠١

(١) نظام الدين احمد بخشي الهروي ، المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الإستعمار البريطاني ، ترجمة: أحمد عبد القادر الشاذلي ، ط الهيئة العامة للكتاب. ١٩٩٥م ، ج١، ص٢٨

(٢) دولة الإسماعيلية في إيران(بحث في قيام الإسماعيلية إلى قيام الدولة) ، ط . مؤسسة سجل العرب ١٩٧٥م ، ص٨٥

وبعد هذه الحادثة منح الخليفة العباسي القادر بالله السلطان محمود الغزنوي لقب "نظام الدين وناصر الحق"[١].

إلا أن نشاط الشيعة الإسماعيلية كان قوياً جداً وظاهراً في إقليم فارس،حيث أثمر نشاط الفاطميين عن نجاح كبير، منذ أن قام بالأمر هناك أحد الدعاة الكبار ويدعى "موسى بن أبي عمران" وقد نجح في تنشئة ابنه على مذهبه ثم لقنه أصول الدعوة وطرق بثها في الناس وطلب إلى الخليفة الحاكم بأمرالله الفاطمي أن ينصبه حجة من بعده، ولكن الخليفة رفض هذا التنصيب وقد ثابر الابن حتى ظفر بثقة الخليفة وخلف والده في منصب حجة فارس واتخذ لنفسه لقب " المؤيد لدين الله"[٢].

فضلاً عن إشارة أخرى إلى وجود داعي قبل ناصر خسرو هو "محمد أديب" حيث كان يمارس نشاطه في غزنه ، لكن لم يحدد تاريخ مباشرة هذا الداعي لنشاطه هناك ولا تاريخ وفاته، لكن يرجع أنه عاش بعد وفاة السلطان محمود الغزنوي الذي عرف عنه التعصب ضد الفرق المعارضة[٣].

كذلك اضطهد أتباع المذهب الشيعي الزيدي عند هجومه على أملاك البويهيين في الري ، وقبض على أتباع الأمير "مجد الدولة البويهي" إذ قتلهم بتهمة الاعتزال وجعل مكتبته النفيسة طعمه للنيران[٤].

هكذا أخذ السلطان محمود الغزنوي على عاتقه مهمة القضاء على النشاط الشيعي سواء في خراسان أو غزنه أو حتى الهند، لكن الملفت مما سبق ذكره أن صراع السلطان محمود الغزنوي ضد الشيعة ليس بهدف الحفاظ على

---

(٣) جوزجاني ، طبقات ناصري ، ص٢٢٩ ؛ الحسيني ، زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) ، تحقيق : محمد نور الدين ، ط ٢ . دار اقرأ – بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص٢٧

(١) ناصر خسرو، سفرنامه ، ص٧

(٢) أبو عبد الله حاكم نيشابوري ، تاريخ نيشابور، ترجمة محمد بن حسين خليفة نيشابوري، جاب أول بهار ١٣٧٥هـ.ش تهران، ص٣٧ ؛ محمد السعيد : دولة الاسماعيلية في إيران ،ص٨٤

(٣) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ط١ . دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٤، ص٤٥١ ؛ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص١٥٢-١٥٣ ؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٨٤

السنة أو مواجهة خطر يهدد الإسلام مثلما يقول المؤرخون السنيون، بل السيطرة على الثروات والمصادرات التي اتبعها عند قمع معارضيه وبالفعل هذا مافعله حتى مع وزيره "أبي علي حسن بن محمد" المعروف بـ" حسنك ميكال" الذي وزر في عهد السلطان محمود، واتهم بأنه استخدم نفوذه لامتلاك أراضي الرعايا والمواطنين في نيسابور بصورة غير شرعية، فتم القبض عليه وصودرت أمواله وتم شنقه بتهمة القرمطة[1].

أي أنه أصبحت القرمطة والتشيع هما التهمتان اللتان تستطيع بهما السلطة الغزنوية مصادرة أموال وأملاك المعارضين أو حتى مقاسمة كبار الملاك والأراضي في الخراج والأنصبة.

هذا بالإضافة أيضاً إلى قمع نشاط الجناح الآخر من المعارضة وهو المعتزلة الذي اتصل نشاطهم بمدى نجاح نشاط الشيعة، إلا أن أحد المؤرخين[2] يرى أن المعتزلة كانوا يمثلون الشريحة الغالبة والمثقفة من شرائح المجتمع طبقاته؛ لذا فقد ظلوا بعيدين عن جماهير الناس وبقوا في هيئة محافل محددة ومغلقة، ولهذا السبب أيضاً لم تكن مطاردتهم مستمرة كما لم يكن إيذاؤهم كبيراً وأحياناً كانت أعمال الضغط والعنف ضدهم شديدة كناراشتدت ثم خبت وأصبحت رماداً مثلما حدث في عهد السلطان محمود الغزنوي والسلطان طغرل بك أول السلاطين السلاجقة.

تعليقاً على النص السابق نحن نري أن قمع المعتزلة ومحاربتهم كانت شديدة و متامشياً مع قمع النشاط الشيعي، ودليل ذلك أن محاربة المعتزلة قبل أن تأتي من قبل سلاطين المشرق سواء الغزنويين أو السلاجقة أتت من قبل الخلافة العباسية نفسها وبدأها الخليفة المتوكل العباسي(٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) عندما أعلن اضطهاد واستتابة المعتزلة وحرق كتبهم وأوراقهم ،أما عن تمثيلهم للشريحة المثقفة فهذا طبيعي بل وتمثيلهم للطبقة

---

(١) البيهقي ، تاريخ البيهقي، ص١٩٠ ؛ عباس إقبال: المرجع السابق، ص١٨٥

(٢) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران ، ص١٤٤

الوسطى(البوجوازية) التي دعمت نشاط الشيعة الزيدية وكانت أفكارهم بمثابة الخلفية الفكرية لنشاط الشيعة، الذي أدى إلى نجاحهم في القيام بدولة قارعت السلطة السامانية السنية في طبرستان وخراسان، وأيضاً قيام دولة البويهيين الزيديين والتي قامت في عقر دار الخلافة العباسية السنية في بغداد وسيطرت على معظم المشرق الإسلامي، وذلك له دلالة سياسية – تاريخية على الارتباط الوثيق بين أفكار المعتزلة والشيعة وخصوصاً الزيدية مما أثر على الحياة السياسية بل والفكرية.

وقد ذهب بروكلمان[1] معضداً هذا الرأي مشيراً الى أن السلطان محمود الغزنوي لم يكتف باضطهاد الإسماعيلية فقط بل عمد إلى اضطهاد الفقهاء من أصحاب النزعة الاعتزالية ، بل أضاف حسن إبراهيم حسن[2] أن السلطان محمود الغزنوي امتثل إلي أمر الخليفة القادر بالله العباسي بقمع المعتزلة سواء بالحبس أو القتل أو النفي والتشريد، حتى أن محمود الغزنوي أمر الفقهاء السنيين بلعن المعتزلة على المنابر.

أثر ظهور الكرامية على الحياة السياسية والإجتماعية:

فالكرامية قد تحدثنا عن نشأتها ومؤسسها وأفكارها في الفصل الثاني، أما الآن نذكر دورها في الحياة السياسية ، فيعتبر بداية ظهورها الحقيقي على مسرح الأحداث كان في عهد ناصر الدين سبكتكين والد محمود الغزنوي في إيثاره لهذه الفرقة، ومن بعده ابنه محمود الغزنوي الذي أكرم هذه الفرقة ، حتى قال الشاعر أبو الفتح البستي عنهم:

الفقه فقه أبي حنيفة وحده ... والدين دين محمد بن كرام

إن الذين أراهم لم يؤمنوا ... بمحمد بن كرام غير كرام[3]

لكن التساؤل هنا لماذا ساند السلطان محمود الغزنوي فرقة الكرامية ودعمها؟

---

(١) تاريخ الأدب العربي،ج٣ ، ص٢٦٩

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ،ج٣ ، ص٩٦

(٣) العتبي ، تاريخ اليميني، ص٤٢٣-٤٢٤

الإجابة هنا تكاد تكون واضحة ولاسيما في النقطة السابقة عرضنا لموقف السلطة الغزنوية من المعارضة أي الشيعة والمعتزلة ، إذن السلطان محمود الغزنوي أراد أن تكون الكرامية شوكة في ظهر الشيعة والمعتزلة تساعده في عمليات القمع المنظمة ضد المعارضة، بل يأخذ برأي وفتوى مشايخ الكرامية لكي يزداد نفوذه المذهبي والاجتماعي أيضاً[١].

وبالفعل يحدثنا العتبي عن الإمام الفقيه "أبي بكر إسحاق محمشاد" وهو رئيس فرقة الكرامية في نيسابور في عهد السلطان محمود الغزنوي، ومحمشاد كلمة تكثر في أسماء أعلام الكرامية ويقال إنها تخفيف "محمد شاد"[٢]، وقد تولى زعامة الكرامية بعد وفاة أبيه عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م[٣].

وكان لأبي بكر محمد هذا دور مهم في حرب الغزنويين ضد القراخانيين عام ٣٩٧هـ/١٠٠٦م ؛ لأنه ساعد في منع القراخانيين من التقدم والهجوم على نيسابور بل ووقع أسيراً، ونجح فيما بعد في الهرب وبذلك علا نجمه عند السلطان محمود وأصدر قراراً بتعيينه رئيساً لمدينة نيسابور، ليكتسب مكانه سياسية كبيرة[٤] ، فكانت تلك المكانة السياسية التي نالها زعيم الكرامية أسفرت عن حدوث ما خطط له السلطان محمود الغزنوي ألا وهو قمع المعارضين سواء الشيعة وخصوصاً الإسماعيلية والمعتزلة، بل وذهب إلى أبعد من ذلك إلى مصادمات مع المذاهب السنية ضد الحنفية والشافعية[٥]، لكن هذا الصراع وتلك المصادمات التي اتخذت لباساً مذهبياً لا تخلو من دوافع اجتماعية – اقتصادية .

---

(١) العتبي، المصدر السابق، ص٣٩١ ؛ النظامي العروضي السمرقندي: جهار مقاله، ص١٤٤،١٤٥

(٢) تاريخ اليميني ، ص٣١٠

(٣) العتبي ، نفسه ، ص٣١٠ ؛ النظامي العروضي السمرقندي : المصدر السابق ، ص١٤٥

(٤) Bosworth, the rise of the karamiah in khurasan,Hart ford,1960,p196

(٥) المقدسي،أحسن التقاسيم، ص٣٣٦

ويعضد ذلك الرأي المستشرق Bullite[1] حينما ذكر أن الخلفية أو الجذور الاجتماعية للكرامية بما تضم من شرائح طبقة العامة مثل الفلاحين والعمال والحرفيين كان لها أثر على نظرة الكراميين للأحناف والشافعيين بمكانتهما الكبيرتين في الدولة الغزنوية سواء سياسياً أو ازدياد ثروات وأراضي للفقهاء من الجانبيين، فاشتغل بداخل الكراميين صراعاً اجتماعياً صرفاً، ومن ثم قامت طبقة العامة ممن يساندون الكرامية بتنفيذ تلك الأفكار في إصلاح المجتمع من الفساد وظلم الأعيان والاستفادة أيضاً من ذلك النفوذ السياسي الجديد لهم. وبناءً عليه فقد سلكوا درب السلطان محمود الغزنوي اتهام خصومهم من المذهب السني بالقرمطة والاعتزال لابتزازهم وسلب أموالهم، حتى لا يوشى بهم عند الحكومة الغزنوية، ودليل على ذلك ما فعلوه مع الفقيه الشافعي ابن فورك[*] (ت:٤٠٦هـ/١٠١٤م)، والذي جاء إلى نيسابور ليقوم بالتدريس في مدرسة بنيت خصيصاً له، إلا أن الكرامية اتهموه بالقرمطة، وقدموه بالفعل الى محاكمة حضرها السلطان، وهناك أعلن ابن فورك مذهبه الذي ينتمي إليه وهو المذهب الشافعي وبراءته مما نسب إليه من الافتراءات التي لا تمت إليه بصلة، إلا أن الكراميين لم يتركوه إلا ودسوا له السم في طعامه عند عودته إلي نيسابور فمات[2].

كذلك دخلوا في مناوشات مع الصوفيين تلك الطائفة الزاهدة ولاسيما أن المتصوف الشهير آنذاك الشيخ أبا سعيد بن أبي الخير الميهني (ت:٤٤٠هـ/١٠٤٨م) - الذي سيأتي التعريف به فيما بعد- اتهم أيضاً بالقرامطة إلا أن هذا الشيخ غادر نيسابور ليستقر في بلدته ميهنة ويبتعد عن

---

(٦) The political-Religious history of nishapur in the eleventh century, oxford .1971, p.76. انظر:

(*) ابن فورك : هو الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك وهو المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ،أقام بالعراق مدة يدرس ثم توجه إلى الري فراسله أهل نيسابور فجاء إليهم (انظر الإسنوي، طبقات الشافعية، ج٢،ص١٢٦) ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٣، ص١٨١

(١) عبد الرحيم الإسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص١٢٧

الاتهامات الباطلة[1].

هذا فضلاً عن الدور الكبير الذي لعبه أبو بكر محمد في إعدام الداعي الإسماعيلي التاهرتي الذي قدم إلى خراسان يحمل رسالة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود، فتم مناظرته وبالطبع تم قتله[2].

إلا أن كل هذا التدعيم الكبير من قبل السلطة الغزنوية لفرقة الكرامية، وإطلاق يدها بهذا الشكل الكبير جعل أحد المؤرخين[3] يقول بأن السلطان محمود الغزنوي نفسه اعتنق مذهب الكرامية، إلا أن هذا الرأي بالطبع جانبه الصواب لكن ربما قصد أن السلطان محمود الغزانوي بمساعدته الكبيرة والدائمة للكرامية أصبح مذهباً سياسياً له للقضاء على خصومه.

هذا فضلاً عن رواية العتبي[4] عن أحد أعيان الكرامية بنيسابور وهو "أبو محمد عبد السلام بن محمد الهيصم" الذي قام في مجلس الخليفة القادر بالله العباسي عند بيعته خطيباً بحضرة مشايخ وأعيان بغداد ليتكلم بعبارات الثناء والمديح في الخليفة القادر بالله.

لكن السؤال هنا هل استمر وضع الكراميين على هذا النحو من المكانة السياسية والاجتماعية التي اكتسبوها بتعضيد السلطة الغزنوية؟

فالإجابة عن هذا السؤال بدأت من عند القاضي " أبي العلا صاعد" الحنفي حينما شرح للسلطان محمود ما يزعم الكراميون في حق الله سبحانه وتعالى ومالهم من آراء حول المعبود بقولهم أنه جسم له حد ونهاية من تحته الجهة التي منها يلاقي عرشه، وبالفعل اقتنع السلطان بما قاله القاضي أبو العلا حول مبادئ وآراء هؤلاء القوم، فأمر بأن يحضر أبو بكر محمد الكرامي لمحاكمته في غزنه، وكلف القاضي الحنفي "أبا محمد عبد الله

---

(٢) محمد بن المنوربن أبي سعيد بن أبي الخير الميهني، أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، ترجمة، إسعاد عبد الهادي قنديل ، ط الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦م ، ص١٥

(٣) آي برتلس ، ناصر خسرو واسماعيليان ، ص١٠١

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب،ج٣، ص٢٢٠

(٢) تاريخ اليميني، ج٢، ص٣٠٨

الناصحي" استجوابه حول هذه الادعاءات[1].

فغضب السلطان محمود لما سمعه عن آراء الكرامية، فأصدر أمراً للوالي ورؤساء المجالس العلمية في خراسان بأن يطهروا المدارس من أفكار الكرامية، وأمر بعزل أبي بكر محمد من رئاسة المدينة وأن يتولى رئاستها "أبو على حسن بن محمد الميكالي" المشهور بحسنك الذي اتخذ ضد الكرامية أشد العقوبات فعزل وحدد إقامة إمام الكرامية "أبو بكر محمد محشاد" في مدينة نيسابور[2]، لدرجة قيام حرب أهلية بين الكرامية والحنفية والشافعية فيذكر ابن الإثير[3] " أن الحرب الأهلية التي جرت في نيسابور قتل فيها الكثير من الفريقين، وكان مقدم الحنفية القاضي "أبو العلا صاعد" ومقدم الشافعية "أبو المعالي الجويني"، فكانت الغلبة بالطبع للأغلبية وهم المذهب السني وبالتالي خربت مدارس الكرامية والخانقاوات، كما انتهى هذا الصراع بمقتل زعيمهم "أبي بكر محمد محشاد" في مدينة نيسابور.

إلا إننا نرى أن رواية المؤرخين عن أسباب نهاية الكرامية وتصويرها بأن السبب هو وشاية فقهاء السنة بهم عند السلطان محمود الغزنوي بأنهم مجسمون، واستجابة السلطان لهم على أساس أنه حامي حمي الدين، وانقلابه عليهم فجأة لهذا السبب ، بها صبغة مذهبية أو أسباب غير منطقية تحوي بداخلها أسباب و دوافع ذات مضمون اجتماعي. ويؤيد هذا الرأي المقدسي[4] عندما قال أن الكرامية أهل زهد وتعبد ومرجعهم إلى أبي حنيفة.

وبناء على ما ذُكِر مسبقاً بأن وضع المذهب الحنفي في الدولة كان كبيراً من الناحية السياسية والاجتماعية ، مما انعكس ذلك على وضع الفقهاء الأحناف سواء وضع ديني أو اجتماعي في حيازتهم للثروات أو امتلاكهم

---

(٣) العتبي، المصدر السابق، ج٢، ص٣١٢-٣١٣

(١) العتبي، تاريخ اليميني، ج٢، ص٣١١

(٢) الكامل في التاريخ، ج٨،ص١٧٧ ؛ سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ط تهران ١٣٣٧ هـ.ش،ص١٨٧

(٣) أحسن التقاسيم، صـ٣٩٥.

بعض الضياع، مما كان له أبلغ الأثر على فتاويهم، وكون أن الجذور الاجتماعية للكرامية كفرقة تمثل طبقة العامة بشرائحها من العمال والحرفيين اكتسبت نفوذاً سياسياً جديداً، فهذا يهدد مصالح الفقهاء السنيين ومراكزهم وثرواتهم ولاسيما أن اتباع الكراميين كانوا آملين في تحسين مستواهم المعيشي بعد تعضيد السلطة الغزنوية لقائدهم وزعيمهم "أبي بكر محمشاد" وخصوصاً أنه بدأ في مناوشات ضد الفقهاء السنيين سواء حنفية أو شافعية، فكان هذا الصراع يمثل صراعاً طبقياً في المقام الأول بين الطبقة الوسطى المتمثلة في شريحة الفقهاء الممتلكين للثروة والمائلين للسلطة والتي تخلت عن دورها في مساندة العامة وبين طبقة العامة والتي يمثلها الكرامية بشرائحها المختلفة وليس كما يقول بعض المؤرخين أنه صراع من الناحية المذهبية الصرفة.

من ناحية أخرى نرى أن السلطان محمود الغزنوي انقلب عليهم بعد تعضيد ومساندة كبيرة ، و نكاد نلمح أن السبب هو اتفاق حدث بين شريحة الفقهاء الأغنياء وبين السلطان خشية أن يتطور نفوذ الكرامية أكثر وتصبح ثورة عامة يقودها أبوبكر محمد محمشاد الكرامي ضد شريحة الفقهاء الأغنياء ومن ثم الثورة ضد طبقة الأرستقراطية التي يمثلها السلطان محمود الغزنوي وقادة الجيش، وهو مايهدد مصالح السلطة ، ومن ثم وافق السلطان على الخلاص من الكرامية ولكن ليس لأنهم مجسمون أو لمعتقد ديني معين كما يزعم المؤرخون السنيون.

وقد صدق " Bulliet "[1] حين ذهب مبرراً ذلك قائلاً بأن تلك القرارات التي اتخذها السلطان محمود ضد الكراميين ترتب عليها فقدان الطبقة العامة التأييد المستمر الذي كانت تتمتع به فترة سلطتهم على مدينة نيسابور، وبذلك تراجعت الطبقات الأخرى كالأغنياء وشريحة أصحاب المصانع عن

---

(١) انظر: The political religious history of nishapour,p.77

التزاماتهم السابقة بعد هذه الفترة تجاه هذه الطبقة الكادحة سواء من ناحية رفع الأجور أومساعدتهم في العمل أو تخفيف بعض أعباء المعيشة عنهم من قبيل عدم رفع أسعار السلع الرئيسية مثل القمح والدقيق والزيت وغير ذلك.

موقف السلطة الغزنوية من التصوف:

كعادة السلطات السنية لم يتغير موقف السلطة الغزنوية السنية من مساندة التصوف وإطلاق يدهم في الحياة الاجتماعية بين الناس، حيث يصف ميرخواند[1] السلطان محمود الغزنوي أنه كان يميل إلى المتصوفة والدراويش ميلاً عظيماً، حتى أنه ذات مرة ذهب إلى صومعة زاهد وعند توديعه للزاهد قال له"ماذا تريد من أموال لكي يقدمها لك الخازن؟"

فهذه العبارة تحمل في طياتها دلالة هامة ألا وهي تعضيد الصوفية ومساندة شيوخها من الناحية السياسية فضلاً عن الإغداق عليهم بالأموال.

ولعل ازدهار التصوف في العالم الإسلامي وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين قد أدى الى نمو وتطور الفكر الصوفي في خراسان وظهور أعلام له ساهموا في تجديد الفكر الصوفي بصفة عامة في المشرق الإسلامي، مما انعكس على موقف السلطة الغزنوية السنية في مساندتها للتصوف وبناءً أيضاً على الخلفية السياسية – الاجتماعية الموجودة آنذاك – والتي قد تم شرحها من قبل- قد ساهمت في مساندة الفكر الصوفي.

وكان أشهر علماء الصوفية في عهد الدولة الغزنوية الشيخ "أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير محمد بن أحمد الميهني" (ت:٤٤٠هـ/١٠٤٨م) وهو شاعر فارسي وشيخ من شيوخ الصوفية عاش في خراسان في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس، فقد كان مولده في مدينة ميهنة من أعمال خوارزم عام ٣٥٧هـ/٩٦٧م وارتحل الى كثير من المدن لتلقي العلم والفقه مثل مرو وسرخس، والتقى بأبي عبد الرحمن

(٢) روضة الصفا، ص١٥٩

السلمي[*] في نيسابور ونال على يديه الخرقة الأولى وفي نهاية هذه الفترة اتصل أبو سعيد بأبي العباس القصاب في آمل ونال على يديه الخرقة الثانية ، وفي ميهنة بدأ أبو سعيد يمارس نشاطه كولى من أولياء الله وشيخ يشرف على تربية المريدين للدراويش فتجمع حوله المريدون وذاعت شهرته في المناطق المجاورة ثم نقل نشاطه الي نيسابور[١].

أما بالنسبة لمذهب أبي سعيد فقد كان من أوائل المروجين لوحدة الوجود بالرغم أن مذهبه الذي يقوم على الفناء ووحده الوجود لم يكن جديداً، فقد سبقه إليه الصوفي الفارسي "أبو يزيد البسطامي"[*] ومعاصره "أبو الحسن الخرقاني" إلا أنه شكله في صورة جديدة ويعتبر أبو سعيد من ناحية التطور التاريخي للصوفية مشرعاً بارزاً فقد حدد معالم الطريق ووضع الشروط التي ينبغي توفرها في الشيخ والمريد، كما شرع القواعد والرسوم لحياة أهل الخانقاة حتى إنه ليعد المؤسس الأول لنظام الخانقاوات في الإسلام وأبو سعيد من أوائل شيوخ الصوفية في خراسان الذين صاغوا عقائدهم وآراءهم نظماً بالفارسية[٢].

بالطبع لاقت هذه الأفكار رواجاً بين العامة وخصوصاً شريحة العمال والحرفيين نظراً لأنها بمثابة انخراط في عزلة بعيداً عن الوضع السياسي-الاجتماعي الفاسد والمستبد، بالإضافة إلى الصراع المذهبي المتخذ صبغة اجتماعية بين المذاهب السنية أو الشيعية أو الكرامية.

(*) أبي عبد الرحمن السلمي: هو صاحب طبقات الصوفية حيث صنف الكثير وأخذ عنه القشيري والبيهقي حيث كان صاحب حديث زاهد وقد عمل دويرة للصوفية وقد بلغ فهرست تصانيفه لمائة أو أكثر وكتب الحديث لمروونيسابور ولدسنة٣٣٠هـ/ وتوفي٤١٢هـ . (انظر الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ط دار الفكرالعربي . القاهرة ب.ت، ج٣ ، ص١٠٤٦) .

(١) محمد بن المنور ، اسرار التوحيد في مقامات الشيخ ابي سعيد، ص١٥،١٣،١٤

(*) أبو يزيد البسطامي : هو العارف الزاهد المشهور واسمه طيفور بن عيسى ، وكان جده مجوسياً فأسلم ، وله مقامات ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة ت : ٢٦١هـ/٨٧٤م (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١١، ص٢٦٢ ؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٢ ، ص٢٣) .

(١) محمد بن المنور ، المصدر السابق ، ص١٦

ففي هذا الصدد حدث خلاف وصل إلى حد العداء بين الشيخ أبي سعيد الميهني ممثل الصوفية وأبي اسحق محمشاد ممثل الكرامية والأحناف وممثلهم "القاضي صاعد" وذلك عندما جاء الشيخ أبو سعيد إلى نيسابور واتجه نحوه الناس وأصبح له الكثير من المريدين ويقيم لهم الولائم الفاخرة، وبالتالي أرسل كلاً من الكرامية والأحناف عريضة إلى السلطان محمود الغزنوي قائلين" قد جاء إلى هنا رجل من ميهنة يدعو إلى الصوفية ويتحدث في المجالس ويقول الشعر على المنبر ولا يتحدث في التفسير والأخبار ويأمر بالسماع ويرقص ويأمر الشباب بالرقص ويأكل الجوز واللوز وألوان الفاكهة وقد التفت حوله الناس وضلوا الطريق ووقع أكثر العامة في الفتنة" فأمر السلطان بأن يجتمع أئمة الفريقين الشافعية والحنفية لينظر في أمره[1] .

بعد عرض هذا النص يمكن استنباط عدة نقاط منها أنه مازال الصراع بين المذاهب من الناحية الشكلية يتخذ صورة مذهبية لكن من الناحية الأخرى يتخذ صورة سياسية- اجتماعية وقد سبق أن فسرنا الخلاف بين الكرامية والسنة على أساس سياسي– اجتماعي ، والآن الصراع بين الصوفية والمذهب السني قبل أن نشير إلى الأسباب التي أدت إلى ذاك الصراع ، يجب أن نتذكر الخلفية الاجتماعية للمتصوفين في هذا العصر أن معظم المنتمين إلى تلك الطائفة هم من طبقة العامة بشرائحها المختلفة، وأن موقف فقهاء السنة الأحناف معروف بمساندتها للسلطة الغزنوية واكتسابها امتيازات سياسية أو اقتصادية لتبرير مشروعية الفساد للسلطان محمود الغزنوي وبالتالي تم إنصاف الفقهاء السنيين من قبل على حساب الكرامية الذين أيضاً هم من شرائح طبقة العامة، وذلك لضمان عدم ثورة العامة على السلطة وهذه المرة صورة أخرى من صور الصراع الطبقي بين الصوفية والمذهب السني سواء حنفي أو شافعي.

---

(٢) محمد بن المنور، أسرار التوحيد ، ص٢٠

أما عن الأسباب الخلاف الذي وصل إلى حد الصراع بين الصوفية وفقهاء السنة هو منقسم الى شقين، فالأول متصل بالناحية السياسية حيث من المعروف مكانة الفقهاء الأحناف عند محمود الغزنوي وبالتالي لما وجدوا تعضيد ومساندة السلطان للصوفية بل والإنفاق عليهم وإنشاء خانقاوات لهم يهدد مكانتهم السياسية فوجدوا فرصة لاتهام المتصوفين بالإباحية والإلحاد ، أما الشق الآخر مرتبط بالناحية الدينية حيث أن التصوف في هذه المرحلة قد وصل إلى مرحلة من الضعف الفكري حيث تخلى عن الجانب الفكري وتحول إلى موائد وأطعمة وشراب، أي أنه أدى إلى التواكل ويتضح ذلك من طقوس الصوفية .

ومن ناحية أخرى وجدت أعلام أخرى للصوفية ساهمت بشكل كبير في تطور التصوف وفي الحياة الاجتماعية مثل "أبي سعيد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم بن أبي عثمان الواعظ الخركوش" وعرف بالخركوش نسبة إلى سكة خركوش بمدينة نيسابور حيث ولد وإليها عاد بعد إقامة بالعراق و مكة بعد سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م واستحق تقدير الملتفين حوله لما أقامه من منشآت خيرية ومنها دار للمرضى وتوفي سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م[١].

قصارى القول أنه لا قيمة لإنكار تصوف إسلامي على أساس أن التصوف الإسلامي في صميمه هندي أو فارسي أو أفلاطوني حديث ، ولا بمعنى للقول بأن فلاناً أخذ تصوفه عن فلان لمجرد الشبه بين الاثنين[٢] . فالتصوف نشأ وتطور تطوراً إسلامياً صرفاً، لكن التأثر هنا كان في تأدية أو كيفية أداء الحلقات أو الرياضيات بالثقافة الهندية أو الفارسية إلا أن هذا التأثر لم يوجد إلا بعد الاطلاع على ثقافات أجنبية من خلال حركة الترجمة التي تمت في عهد الخليفة المأمون ومن ثم الإطلاع على الثقافات والفلسفات المختلفة.

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤ ، ص٧٧ .

(٢) أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص٥٦